

ثروت أباطة

سيرة إنسانية ومسيرة أدبية

نشأته

د. هيفاء السنغوسي^(١)

ولد ثروت أباطة في منزل بشارع بحي المنيرة في القاهرة في ٢٨ يونيو عام ١٩٢٧ ولكنه لم ينشأ في هذا البيت ، وإنما في منزل والده في شارع الملك الناصر بحي المنيرة . وقد رفض والده أن يقبده من موليد القاهرة، فانتظر إلى أن ذهب إلى بلدته غزالة وقبده بها في ١٥ يوليو ١٩٢٧. وقد جاء ذلك حرصاً منه على أن ينتسب إلى بلدة غزالة التي تنتمي إليها عائلة أباطة . كان والده إبراهيم نسوقي محباً لبلدة غزالة ، وكان يوقع مقالاته السياسية بتوقيع " الغزالي أباطة " .

دخل ثروت مدرسة المنيرة للصيقة بمنزلهم ، وهي المرة الأولى التي يترك فيها المنزل لمدة طويلة. كان والده ووالدته يُطلان عليه من إحدى نوافذ المنزل للاطمئنان عليه. يقول ثروت : "... دخلتُ المدرسة الملاصقة لبيتنا ، وأذكر أن والدي ووالدتي كانا يُطلان عليّ من إحدى نوافذ بيتنا ، وكان أبي يُحرك لي منديلاً في يده ؛ حتى أنتبه إلى وجودهما بالنافذة " ^(٢).

أمّا أخوته فهم شامل ويصغره بعامين وبضعة أشهر . وكان شامل شاعراً متمكناً ولكنه قليل النشر، وكان عضواً في مجلس الشعب في انتخابات ١٩٧٦ . ولثروت أختان الكبرى زينات والصغرى كوثر .

(١) أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، كلية الآداب - جامعة الكويت.

(٢) أباطة ، ثروت (لمحات من حياتي) ص ٧.

نشأ ثروت أباطة في بيت لعائلة ثرية تحمل كمًا من المبادئ والأخلاق الفاضلة ، كما أنه نهل من والده ابراهيم دسوقي الجوهر السياسي والوطني، وأخذ منه عشقه للشعر والأدب .

بدأت علاقته بالقراءة حينما أهدى الكاتب الكبير كامل الكيلاني مؤلفاته في قصص الأطفال إلى إبراهيم دسوقي أباطة الذي أهداها بدوره إلى ابنه ثروت. وكان حينذاك في الثامنة من عمره .

يقول ثروت : " ... وقد كانت أعظم هدية ألقاها من أبي في هذه الفترة هي كتب كامل الكيلاني . وأذكر وأنا في الثامنة من عمري أن الأستاذ الكيلاني أهدى عشرة كتب من مؤلفاته لأبي . وأعطاني أبي للكتب ، ودخلت إلى غرفتي، وانبطحت لرضا وبدأت أقرأ الكتب ، فما زلت بها حتى أتيت عليها وأنا في عالم سحري عجيب ... وأعتقد أن هذه السنوات كانت أجمل سنوات حياتي ، وأجمل أوقاتها هي تلك التي بدأت فيه أتعرف على للكتاب وأصحابه صحبةً دامت حتى يومنا هذا. وقد استطعت بفضل مكتبة الكيلاني أن أنتقل إلى الأدب الكبير دون أن أشعر بأي جهد . فحين بدأت قراءته سيطرت عليّ متعة القراءة وانتقلت بعد ذلك إلى تيمور .. ثم في غير ترتيب زمني رحْتُ أقرأ للعمالقة مبهوراً بهذه العوالم التي تفتحت آفاقها أمام عقلي ووجداني وكياني كله ، وأنا أقرأ لظه حسين وهيكل والعقاد والزيات وأحمد أمين والمازني ... الذي كثيراً ما جعلني أقهقه وأنا أقرأه وحدي في غرفة مغلقة ... وتعلو قهقهتي ويسمعها الذين بخارج الغرفة .. والله وحده يعلم ماذا كان يظن بي الجالسون خارج الغرفة (١) .

لم يستمتع ثروت بطفولته كغيره من الأطفال الآخرين في سنّه ؛ لأنه صاحب ولده في حياته السياسية في كلّ مكان ، فكان يجالس الوزراء والأدباء

والشعراء . كما صحب والده عدّة مرّات إلى مجلس النواب وجلس في شرفة الزوّار وهو في سن الطفولة ، وكان يستمع إلى المناقشات السياسية . فلا عجب أن جمع بين حب الأدب وفهم السياسة ، ولا عجب أن تكون كتاباته مزيجاً من السياسة والأدب . كان والده إبراهيم دسوقي أباظة رجل سياسة بالدرجة الأولى ، رجلاً وطنياً ينتمي إلى حزب الأحرار الدستوريين ؛ لذا كان منزله عامراً بالناس الذين يلتقون حوله تأييداً له وقت الانتخابات ، كان للفوز حليفه دائماً .

ظلّ والده في مجلس النواب زعيماً للمعارضة يُمثّل الأحرار الدستوريين حتى حريق القاهرة وانهايار الحياة النيابية في مصر . ومما لا شك فيه أن ثروت قد تأثر كثيراً بوالده . وكان يلحظ هذه الأجواء ويراقبها بدقة . وقد كان والده شخصية محورية فاعلة أسهمت في تكوين شخصية ابنه ، وفي تأسيس رؤيته الفكرية والسياسية فيما بعد . وقد اعتادت أسرة ثروت أن تذهب إلى قرية غزالة على أطراف مدينة الزقازيق ؛ لتقضي شهرين ثم شهراً آخر في رأس البر . وقد منحتة الإقامة فرصة الالتقاء بالفلاحين والامتزاج بهم .

ثروت وهموم الكتابة

رأى ثروت والدته وقد تجمّع عندها الفلاحات يشكين لها ، وكانت تسعى لحلّ مشاكلهن العائلية ، ومن خلال هذه المشاهد التي اختمرت في ذهنه اكتشف ثروت أن ما يكتبه الروائيون وكتّاب القصة عن الفلاحين هو أمرٌ مصطنع ومبالغ فيه ، بل غير صحيح . فهو يرى الفلاح المصري شديد الذكاء . وقد كان هذا الفلاح ملهمًا له ومحفزًا لكتابة الكثير من الأعمال الأدبية، فأكثر رواياته كانت تجسيدا لقضايا الفلاحين ، وكان الفلاحون أبطالا يتحركون بفاعلية جذابة في إطار النسق القصصي والروائي . ومن أبرزها رواية (هارب من الأيام) التي أثارت ضجة كبيرة حين صدورها ، وتمّ تمثيلها في المسرح

والسينما والإذاعة والتلفزيون . وقد امتتحها الأديب طه حسين بقوله : " إنها أحسن ما كُتب عن القرية في الأدب العربي " (١) .

لم يكتف ثروت بكتابة للقصص والروايات ، وإنما تعداها إلى كتابة المقالات السياسية . وقد كتب أولى مقالاته حينما كان في السادسة عشرة من عمره . وكان آنذاك طالبا في السنة الرابعة الثانوية في مدرسة فاروق الأول . وكانت مقالته بعنوان " تصحيح أوراق " ، وقد وقّعها باسم مستعار هو " تلميذ قديم " ، انتقد فيها أستاذ اللغة العربية الذي أخطأ في درس النحو ، وكان خطأ المدرسين آنذاك لا يُغتفر . وقد تمكّن ثروت بواسطة معارف والده أن ينشر مقالته تلك في مجلة " الثقافة " التي كان يرأس تحريرها أحمد أمين ، ومجلة " الرسالة " التي كان يرأس تحرير أحمد للزيات .

كان هذا المقال مفتاحا لعلاقة جديدة بينه وبين الكاتب الكبير أحمد أمين، الذي طلب منه أن يقرأ كتباً في التراث فاستجاب له ثروت ، وبدأ يلتهم كتباً كثيرة في التراث ، ومن بينها كتاب الأغاني الذي كان هدية من الأديب طه حسين (٢) . لم يكن ثروت متفوقا في دراسته على الرغم من نكاته للحاد وبقّة ملاحظته للأشياء المحيطة به . وقد حصل على شهادة الثانوية العامة عام ١٩٤٦ ، وكان اسمها آنذاك التوجيهية . كان والده آنذاك وزيراً للأوقاف في وزارة صنقي باشا .

التحق بعد ذلك بكلية الحقوق، ومضى في دراسته غير متفوق وغير متعثر ، واحتفظ أيضا بحرفة الكتابة للصحافة ، فكان يكتب في مجلتي " الثقافة " و " الرسالة " معا .

(١) أباطة ، عفاف زوجي ثروت أباطة ص ١ .

(٢) لقاء مع عفاف أباطة ، زوجة الأديب الراحل بتاريخ ٢٠٠٤/٣/١ بالقاهرة .

تزوج ثروت من عفاف ابنة عمه الشاعر الكبير عزيز أباطة بعد إعجاب كبير بها تطور نهاية المطاف إلى قصة حب. ولم يكن قد تخرج بعد من كلية الحقوق. وهكذا بدأ حياته الزوجية وهو طالب .

يقول في ذلك : "... ولا شك أن الخطبة ألهمتني عن المذاكرة التي تكفل لي النجاح في اللسانس. وتزوجت في ١١ يونيو عام ١٩٥٠ ، ولم تكن النتيجة قد ظهرت بعد ، وفوجئت أنني لم أنجح وأنه لابد لي أن أودي ملحقا في المرافعات والتجاري . وهكذا بدأت حياتي مع زوجتي ، وأنا بعد طالب في كلية الحقوق . ورحت أذاكر في منزل للزوجية ، وأنا أشعر بحرج شديد ألا أنجح ، فتكون فضيحة لي كزوج وهو تلميذ . وشاء الله أن يكتب لي النجاح" (١).

أنجبت له زوجته عفاف ابنته أمينة عام ١٩٥٥ ، ثم أنجبت له تسوقي في عام ١٩٥٨ . وكلاهما تعلمتا في المدرسة الفرنسية ، وأصبحتا كوالدتهم التي تجيد الفرنسية قراءة وكتابة بطلاقة تامة.

كان البحث عن وظيفة هو همّ ثروت الوحيد بعد تخرجه ، وكان والده قد ترك الوزارة . ظلّ ثروت أربعة وعشرين عاماً بلا وظيفة بسبب عزة نفس والده ، الذي لم يشأ أن يكون له وسيطاً لنيل وظيفة في المؤسسات الحكومية .

أصيب والده في ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٢ بمرض شديد أقعده للفراش ، وتدهورت حالته الصحية بسرعة كبيرة ، فلم يستمر مرضه أكثر من اثنين وعشرين يوما ، وفُجع ثروت بوفاته في ٢٢ يناير . وكانت جنازة والده من الجنازات الكبرى، وقد نُفن في بلدة غزالة التي تعلّق بها كثيرا. ولم تتخلف صحيفة عن كتابة رثاء في إبراهيم تسوقي أباطة نظراً لنقله السياسي والوطني .

(١) أباطة ، ثروت (لمحات من حياتي) ص ٧٥.

عاد ثروت إلى الفراغ الذي كان يعانيه من عمله بالمحاماة ، فقد كان المكتب الذي يعمل به مع الأستاذ إبراهيم أباطة قليل للقضايا ، ومن شأن المحاماة أن تتكش في أيام الحكم الشمولي ، فكان يذهب إلى المحكمة مرة في الأسبوع أو مرتين على الأكثر ، ويحيط به الفراغ في معظم وقته .

فكر في البحث عن وظيفة أخرى ، وكان خاله مدحت أباطة يعمل في إحدى شركات النقل فعرض عليه وظيفة ، لم يتردد ثروت في قبولها، ولكنّه شعر بالملل منها بمرور الأيام ؛ لأن المحامي الرئيسي للشركة لم يكن يكلفه بأية قضية، فقد كان يستحوذ على كل القضايا .

دفعه للشعور بالفراغ إلى الاستقالة على الرغم من إغراء الراتب الذي وصل إلى ثلاثين جنيتها ، وكان المبلغ في ذلك الوقت كبيراً جداً. عاد ثروت إلى الفراغ الذي شغله بالقراءة وبكتابة التمثيليات الإذاعية .

بدأ كتابة أولى روايته (ابن عمار) بعد وفاة والده. وكان يسعى من خلال كتابتها إلى تناسي حادث وفاة والده الذي أثر في نفسه كثيراً. وكان ثروت حزيناً أيضاً بسبب فقدان زوجته لأول مولود بعد صبر دام ثلاث سنوات .

وقد نشرت دار المعارف عام ١٩٥٤ روايته (ابن عمار)، فأرسل كتابه إلى كل الصحف وإلى كل النقاد من عرفهم ومن لم يعرفهم ، فلم تظهر كلمة واحدة تشعره بأنه كتب شيئاً . حتّى جاء يوم ذهب فيه كعائته إلى الكاتب الكبير توفيق الحكيم في بئرو في الإسكندرية ، ووجده يجلس وحيداً فقد كان الوقت مبكراً ولم يأت أحد من رفاقه . وقد سعد ثروت كثيراً بذلك اللقاء ، فقد أبلغه توفيق الحكيم بأن الحكومة قد قررت تدريس روايته لطلاب السنة الإعدادية ، وقد نُشر هذا الخبر في صحيفة الأخبار اليومية .

نشر بعد ذلك روايته (هارب من الأيام)، وكان هذا في عام ١٩٥٧ ، وقد نال بها جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٨. وكانت السنة الأولى التي

تأسست فيها الجائزة . وقد حصل على موافقة أعضاء لجنة الجائزة بالإجماع برواية أحد أعضاء اللجنة . وكانت قيمة الجائزة آنذاك خمسمائة جنيه . وقد نال معها أيضاً وسام للعلوم والفنون من الطبقة الأولى .

وفي عام ١٩٨٣ حصل على جائزة الدولة التقديرية على مجمل أعماله الأدبية ، كما حصل في عام ١٩٩٣ على جائزة مصطفى أمين كأحسن كاتب صحفي في استفتاء أجرته دار أخبار اليوم .

كان ثروت عدواً لليساريين وللشيوعيين والملاحدة والناصريين، وظلّ يهاجم حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بالأسلوب الرمزي، ولم يخط انتقادات صريحة باسمه إلا بعد وفاة الرئيس عبد الناصر. وواصل انتقاده اللاذع حتى آخر مقال كتبه قبل وفاته . يبدو أن التوجه السياسي لدى ثروت لباطة قد أخذ نصيب الأسد في كتاباته . فكان حريصاً على شن الحملة السياسية التي اعتقد بها ، وتبناها في مقالاته .

كانت للكتابة جزءاً رئيسياً في حياته ؛ لذا لم ينقطع عن كتابة مقاله الأسبوعي في صحيفة الأهرام منذ عام ١٩٧٦ حتى عام ٢٠٠٢ أي قبل وفاته بشهور . كتب في فترات من حياته في مجلات وصحف عدة من بينها "الرسالة" و" الثقافة " و" المقطم " و" المصري " . ومارس النقد الأدبي وهو في سن صغير قبل أن يبلغ العشرين عاماً. وقد أهده الأديب الكبير نجيب محفوظ إحدى رواياته، وكتب في إهدائه " إلى الناقد الأستاذ ثروت أباطة " (١) .

علاقته بعائلة الأدب العربي

ارتبط ثروت بالأديب نجيب محفوظ بعلاقة طيبة ، فكانت علاقة التلميذ بأستاذه ، وعلاقة الصديق بصديقه؛ لذا لا غرابة أن نرى موقف نجيب محفوظ

(١) لقاء مع علي كمونة صديق مقرب من ثروت أباطة وخبير بفكره وكتاباته .

واضحاً في عام ١٩٧٠ بإجازته عرض فيلم (شيء من الخوف) حينما كان رئيساً لمجلس إدارة السينما المصرية ، على الرغم من الضجيج السياسي الذي أثير حول هذه الرواية ، وحول الرموز السياسية التي تنافرت فيها بالنظر إلى العصر الذي ولدت فيه الرواية وعُرض فيه للفيلم ، وهو عصر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. كان شديد الإعجاب بالكاتبين الكبيرين توفيق الحكيم وإبراهيم عبد القادر المازني. وكان الحكيم موظفاً في وزارة الشؤون الاجتماعية حينما كان ولده وزيراً لها .

يقول ثروت : "و حين أصبح وزيراً للشؤون الاجتماعية كان توفيق بك الحكيم موظفاً في الوزارة . وقد دعاه إلى الغداء في البيت كما دعا الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني . وقد يعجب للقارئ أنني لم أتهيب في حياتي إلى هذه السن لقاء أحد لا أستثني من ذلك رؤساء الوزارات . ولكنني تهيبت لقاء العملاقين وخجلت أن أحضر معهما الغداء . ولكنني بآن نزلت إلى الشارع من الباب الخلفي لمنزلنا بالعباسية ورأيتهما يخرجان من الباب الرئيسي ، وظللت أنظر إلى ظهريهما وهما يغادران البيت مشياً على الأقدام ، توفيق الحكيم يعتمد عصاه والمازني يطلع في خطاه " (١) .

قال له توفيق الحكيم يوماً : "أنا معجب برواياتك في الإذاعة جداً . لدرجة أنني حين أقرأ في البرنامج أن لك رواية أمكث في البيت ولا أخرج " (٢) .

وقد توثقت علاقته بتوفيق الحكيم، فكان يلتقي به كثيراً في دلو الكتب ، ويجلس معه في ندواته في جروبي بالقاهرة وفي بيترو بالإسكندرية . كما

(١) أبطاة ، ثروت (ذكريات لا منكرات) ص ١٠٧.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٨.

اتصل ثروت بالدكتور طه حسين ؛ حيث ربطت بينهما علاقة وثيقة ، وقد كتب د/ طه مقالة عن روايته (ثم تشرق الشمس) ونشرت المقالة في مجلة "الهلال" (١).

وكان الكاتب الكبير يوسف رئيساً لتحرير صحيفة الأهرام عام ١٩٧٦ وقد نشر مقالات لثروت، ولم يمنع حرفاً واحداً .

الخلاف الفكري والأباطي

اشتدت حدة الخلاف الفكري بين الأديب ثروت أباطة وابن عمه الكاتب نبيل أباطة . وقد شغلت الصحافة المصرية بهذا الخلاف الذي نشأ بينهما بسبب الاختلاف في الفكر . ولعل القضية المثارة هنا مهمة ، ولا بد أن نطرحها لأنها تشكل قضية أساسية في فكر ثروت في مرحلة ما في حياته .

يقول نبيل أباطة : " كان ثروت عصيباً وانفعالياً ، ولكنه في نفس الوقت يحمل قلباً طيباً جداً ، فثورته تخدم بسرعة كبيرة . كنت أشرف على الصفحة الأدبية في مجلة " روز اليوسف " التي تمثل تياراً فكرياً معارضاً لثروت . وقد بدأ الخلاف الفكري بيننا حينما شعرت بأنه يعارض الفكر التجديدي وأدب الحداثة . وكنت أؤمن بأن التعصب للأدب القديم رؤية غير صحيحة ، فالفكر والأدب والثقافة بشكل عام - في نظري - لا تقف أمام التطور . كما لا يمكن أن تُحاط بالجمود . كان ثروت متحفظاً على الحداثة وعلى التطور في فن الكتابة الروائية والقصصية والمسرحية، ولم يكن هذا توجهها صحيحاً من وجهة نظري؛ من هنا نشأ الخلاف. وقد اشتدت موجة الاختلاف في الرأي ، ووصلت إلى الصحف ، فكنا نردُّ على بعضنا البعض في مقالات منشورة . يكتب ثروت مقالا موجهاً لي في صحيفة " الأهرام "، وأردُّ عليه في صحيفة " أخبار اليوم " . وقد انتهي الخلاف الفكري إلى علاقة طيبة في جلسة ودَّ حب جمعتنا بفضل الأستاذ

إبراهيم سعدة . وكان هذا في أوائل الثمانينات . ولكن لا يمنع هذا من أن أقول بأنني أرتبط بعلاقة قوية بثروت ، وأعترف بأنني كنت أحبه وأقدره كثيرا . كان - يرحمه الله - يكتب في جريدة " مايو " التي أدرت تحريرها ما بين ١٩٧٩ - ١٩٨٧ . وكنت أخصص زاوية أسبوعية لمقالاته التي يبعثها لي شخصياً . لقد كان الخلاف بيني وبينه فكريا ليس أكثر . مما يعجبني في شخصية ثروت أنه صريح وواضح ، ولا يطعن في الخلف ^(١) .

وعلى الرغم من عدم قناعة ثروت بجماعة الإخوان المسلمين إلا أنهم أشادوا به في كتاباتهم ، ومن بين تلك الكتب التي امتدحته كتاب (مذابح الإخوان في سجون ناصر) لمؤلفه جابر رزق، وكتاب (الناصرية في قفص الاتهام) لمؤلفه عبد العال الجابري ، وغيرها من الكتب التي أشادت بدور ثروت أباطة على المستوى السياسي ^(٢) .

أشتهر ثروت بجراته وبصرachtه وربما بعصبية المزوجة بطيبة قلبه . وكان شجاعا وصاحب موقف ، فعلى الرغم من عدم قناعته بالوفديين إلا أنه لم يهاجمهم . كان يقول : " هؤلاء وطنيون ، وليسوا خونة " . كما إنه لم يقف ضد جماعة الإخوان المسلمين في ظل حكم الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ؛ لأنه لم يشأ أن يزيد حدة الصراع القائم بين الحزب الحاكم وبين جماعة الإخوان المسلمين . كان ثروت عنيفا في خصومته ، ولكنه في نفس الوقت شريفا في هذه الخصومة ؛ فلم يكن يهاجم أعداءه في وقت محنتهم ^(٣) .

وقد كان نجيب محفوظ رئيس مجلس إدارة مؤسسة السينما عام ١٩٦٩ وقد وافق على إجازة عرض فيلم (شيء من الخوف) ، وقال بأنها رولية

(١) لقاء مع نبيل أباطة رئيس تحرير في دار أخبار اليوم .

(٢) لقاء مع عفاف أباطة .

(٣) لقاء مع عفاف أباطة .

وطنية في حين شكك الكثيرون فيها، وحذروا الرئيس الراحل عبد الناصر بأن عتريس بطل الرواية لم يكن إلا الرئيس نفسه . ولكن الرئيس الراحل استنكر هذا الأمر ، ولم يمنع عرض الفيلم . وظلّ الأديب الكبير نجيب محفوظ صديقاً لثروت ، وقد استمرت العلاقة بينهما منذ الأربعينات حتى أيامه الأخيرة قبل وفاته ^(١) .

كان الكاتب فتحي غانم وهو من أتباع التيار اليساري رئيساً لتحرير مجلة (صباح الخير) ، وقد نشر الرواية في حلقات قبل نشرها في كتاب. وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين ثروت أباطة والكاتب فتحي غانم ، إلا أن ثروت أشاد بفتحي في مقال كتبه في صحيفة الأهرام ^(٢) .

كان ثروت رجلاً وطنياً يحمل الهمّ الوطني في قلبه، وكانت مصر عشقاً كبيراً بالنسبة له؛ لذا كان يكره أعداءها. وكانت الحرية رمزا مهما في كتاباته، وكانت حلما سياسيا ووطنيا واجتماعيا كبيرا. لم يستطع ثروت التخلص منه ، وقد ظهر في معظم قصصه ورواياته.

بدأت رحلته مع المرض عام ١٩٦٧ وهو عام النكسة ، فقد أصيب بداء السكر بسبب تأثره نفسيا بهزيمة مصر ، ويؤكد هذا الحدث أنه كان منغمسا في كيان وطنه مصر، وكان عاشقا لانتصارات الوطن ، وكارها لأية هزائم وطنية. كان رجلا صريحا ، لا يستطيع قبح صوته ، وإن لم يعجب الآخرين . وإذا كان ثروت معروفا بعنفه وقسوته في الخصومة كان ذات الوقت شريفاً فلم يكن يستغل خصومته في إلحاق الضرر بخصومه .

أصيب ثروت بجلطة في الشريان التاجي عام ١٩٩٣ ، وقد تُوفي في ١٧ مارس عام ٢٠٠٢م بعد رحلة شاقة مع المرض .

(١) لقاء مع عفاف أباطة .

(٢) لقاء مع عفاف أباطة .

وقد قال عنه الأديب نجيب محفوظ بعد سماع خبر وفاته : " أخلاقه ليس لها مثيل، ولن تتكرر ، وإن نوره في الرواية الطويلة يحتاج إلى بحث مطول بعيداً عن المذاهب السياسية " (١) .

رؤى ثروت أباطة الفكرية بين الواقع والمستحيل

كتب ثروت مجموعات قصصية وروايات ومقالات في الصحف والمجلات . وقد نالت الأعمال الروائية اهتماماً كبيراً لدى النقاد ، ومن بينها (هارب من الأيام) في عام ١٩٥٧ ، وهي تصور احتجاجه السياسي في عصر الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر. وقد نال بها ثروت أباطة - كما أشرنا من قبل - جائزة الدولة التشجيعية في الأدب عام ١٩٥٩، وكانت أول سنة تتأسس فيها هذه الجائزة .

وفي عام ١٩٥٩ نشر ثروت روايته (قصر على النيل) وتصور الرواية الحياة السياسية والاجتماعية في مصر من أوائل القرن العشرين حتى أواخر الأربعينات. أما للرواية (ثم تشرق الشمس) التي نشرت عام ١٩٥٩ ، ففيها يُصور ثروت الحياة السياسية والاجتماعية في مصر في الحرب العالمية الثانية، فنحن نلتقي بالشباب الوطنيين الذين يقفون ضد الاستعمار .

وتأتي رواية (لقاء هناك) عام ١٩٦١ لتقف في وجه الملاحدة ، وتوحد الأديان في ظلّ النوبان في مفهوم الوطن الواحد. أما رواية (شيء من الخوف) التي نشرت عام ١٩٦٧ فهي من أجمل الروايات التي كتبها ثروت أباطة، وقد نال شهرة واسعة على مستوى العالم العربي من خلالها.

توارت رواياته وراء الرموز التي تغلف بعض القضايا السياسية المكبوتة في أعماقه، وكانت هذه الرمزية ستاراً للتخفي عن عيون الرقابة. كما أنها وسيلة للتعبير عن الحالات النفسية المركبة العميقة للشخصيات المحورية.

(١) أباطة ، عفاف (زوجي ثروت أباطة) ص ١٢٧ .

لقد وقع اختياري في هذه الدراسة على روايتين مهمتين في مسيرة ثروت أباطة الروائية : الأولى رواية (لقاء هناك) والثانية رواية (شيء من الخوف). وقد لمستُ في الروائيتين كثافة فكرية على مستوى الطرح المضموني، وعلى مستوى الشخصيات المحورية في علاقتها مع ذاتها ومع الآخرين. لمستُ أيضا دقة في المعالجة الفنية للشخصيات والعقد الموجودة .

ولا نستثني أعماله الأخرى؛ إذ إن مجمل أعماله القصصية والروائية تتشكل من ذلك الخلق النفسي الصلب الذي يخدم للنسق القصصي . فثروت يخلق تفاعلا قويا بين القارئ والقصة والرواية من خلال الرسم التصويري الدقيق للشخصيات القائم على التكثيف الوصفي والبعيد عن الاستطراد . كما أنه اهتم برصد زبنيات الصراع الذي ينشأ بين الشخصيات .

نحن نقف أمام أعمال أدبية تقوم على عناصر قصصية حيوية نَعتمد على التركيز في السرد القصصي والروائي وعلى الحبكة المتقنة التي تخلق التوتر في نفوس القراء ، وتأسرهم بمجرد الانغماس في القراءة ، وتحثهم على التفكير الخلاق. لا شك أن قصص ثروت أباطة ورواياته تمثل انعكاسا لنفسيته ولرؤاه الفكرية والسياسية في الحياة ، وهي أيضا تقع في دائرة الهموم الجماعية التي يلتقطها ثروت من الناس ومن واقع الحياة. ويمكننا من خلالها النقاط فكر ثروت أباطة ونفسيته. وقد تناول فيها قضايا عدة على رأسها قضية الحرية التي عشقها، وتغنى بها. كانت الحرية حلما كبيرا ظل معظم كتاباته .

لقد أشرنا في موضع سابق إلى تميّز شخصية ثروت أباطة بالمواجهة الجريئة لخصومه ، ومن بين التيارات التي سيطرت على الأجواء الفكرية في مصر في الخمسينات والستينات تيار الملاحدة الذي واجهه ثروت بقوة من خلال كتاباته .

الوحدة الوطنية ... الفكر الإلحادي ورواية (لقاء هناك)

كانت رواية (لقاء هناك) والتي مثلت في فيلم سينمائي فيما بعد من أبرز الروايات التي أشار فيها ثروت أباظة بوضوح إلى قضية الإلحاد في مصر. وإن كانت للرواية ترتدي الثوب الاجتماعي إلا إنها تتناول موضوع التسامح الديني الذي شكّل هماً سياسياً أيضاً .

دعا ثروت إلى مزج قطاعات الشعب المصري دون النظر إلى الاختلافات في الأديان، وإلى ضرورة التآخي بين المسلمين والأقباط في مصر، فالوحدة الوطنية في نظره لا تمزقها الأديان .

وقد هاجم فيها ثروت بشكل غير مباشر الفكر الإلحادي. " والواقع أن إنكار وجود الله ليس فكرة حديثة، فقد سبق إلى هذا الإنكار فلاسفة القرن الثامن عشر في فرنسا مثل فولتير وغيره ، ولكنهم في ذلك القرن بالرغم من عدم إيمانهم بوجود الله - كانوا يرون فيه خرافة نافعة، حتى قال فولتير: إنه لو لم يكن الله موجودا لوجب على البشر أن يخترعوه. ذلك باعتبار أن وجوده يعد منبعا لعدة مبادئ ضرورية لحياة الفرد والمجتمع" (١) .

نلتقي في الرواية بعباس طالب كلية الهندسة الذي ينحدر من أسرة مسلمة محافظة، ولكنه يبدأ بالانسلاخ من العقيدة الإسلامية. يعتقد عباس بالحرية في مفهومها اللامحدود، والتي تدخل في مفهوم للتحرر من عبودية فكرة وجود الخالق. ويجرّه التفكير العلمي إلى الدخول في طور الإلحاد ، فيتحرر من العبادات الإسلامية ، فيترك الصلاة والصيام ، ويرتد بأنه غير مقتنع بالصلاة وغير مقتنع بوجود الله .

وفي المقابل نلتقي بسلطان والد عباس ، وهو رجل ملتزم ومحافظ على أداء الصلوات في المسجد . يتضايق سلطان من ابنه عباس الذي أصبح في نظره منحلا عن العقيدة ، ومتثاقلا في أداء الصلوات .

يحاول عباس الامتثال لنصائح والده ، ولكنه لا يستطيع ؛ لأنه يعيش حالة تبدل في تفكيره في خطوة جريئة نحو الإلحاد وإنكار وجود الخالق. وقد شعر والده بحالة التحول التي يمرُّ بها فبدأ يؤنبه، وكان يضربه أحيانا خاصة حينما يهمل الصلاة .

يرى عباس والده منافقا، ويرى بأن حرصه على أداء الصلاة من أجل الناس فقط. كان يذهب مع والده إلى صلاة الجمعة متثاقلا وكارها لأدائها، ولكن بذهابه المسجد يتخلص من تأنيب والده وغضبه، وكان يشعر بالملل في الخطبة، ويحاول أن ينشغل عن سماع الخطبة بأفكار أخرى ؛ لأنه لم يكن مؤمنا بما يسمع، فهو يرى أن الكون يجري وفق نظريات علمية ، وليس لوجود خالق يُنظمه كما يرى الناس . أراد عباس أن يقفز خلال الزمن ، ويتحدى الدين الذي يمثل في رأيه رجعية وعبودية لعقل الإنسان .

وهكذا كان عباس يغيب في عالم آخر يبتعد به عن أجواء المسجد. إنه عالم الاختراعات العلمية ، وعالم الارتحال إلى الفضاء. لقد أحب أن يكون حُرّاً، وكان يحلم بكسر التقاليد والقيود ، ولكنه شعر بالضيق لأن حريته مقيدة في كل شيء حتى في قصة حبه لابنة الجيران إيفون.

يناقش عباس صديقه شعبان حول موضوع الحرية . وكان شعبان شابا يعيش على هامش الحياة ، ويحمل مجموعة من المتناقضات ، فهو يصلي ويشرب الخمر في نفس الوقت ، وكان أحيانا يذهب إلى الصلاة ، وفي فمه طعم الخمر .

ينتقد عباس شعبان ويراه دمية تتحرك بسيطرة المجتمع والخمر ، فهو يشرب ويُصلي ، ويشعر بالاطمئنان حينما يُصلي ، ولكنه يلجأ إلى الخمر كوسيلة للهروب من واقع مرير ؛ لذا فهو يمنح نفسه الحرية بشربه الخمر. ولا عجب أن يحث شعبان صديقه عباس على شرب الخمر ليُشعر بالحرية التي يتمناها .

يتحول شعبان إلى التوبة وإلى الاستقرار النفسي بالإقلاع عن الشرب والمواظبة على الصلاة . ولكن عباس يرفض الاستماع إلى نصائحه ، ويعلن قراراً جريئاً من نوعه. يعلن رفضه لأداء الصلاة، ويكتسب قوة خاصة يتحدى بها رغبة والده ؛ لأنه أصبح مؤمناً بالعلم وبالطبيعة وبالإنسان فقط .

يأتي عباس يوماً إلى البيت بعد انتهاء صلاة الجمعة دون أن يُصليها ، وحينما يبدأ والده بتوبيخه يعلن ثورته على والده ، ويطالبه بأن يستخدم طاقاته العقلية بالتفكير بدلاً من عبودية التقاليد التي يأسر بها نفسها.

يصرُّ عباس على رأيه في الحرية التي هي أهم شيء في الوجود ، وأنه سيصلي حينما يريد أن يفعل ذلك، وليس بأمر من والده، الذي أتى رد فعله بشكل عنيف حيث يغضب ويضربه ، ويطرده من البيت .

" وقام الشيخ سلطان إلى عصاه وانهاه على فتاه في عنف مغيظ ، ولكنه رأى عجباً . كان الفتى إذا ما تعرض للعصا راح ينود عن نفسه بنراعيه ويتوسل إلى الكراسي والأثاث أن يحميه ، ولكن عباس في هذه المرة ظل واقفاً مكانه لم يتحرك وترك العصا تنزل على كل مكان فيه ، وكأنما هي تضرب شيئاً لا أثر فيه من الحياة . وانتبه للشيخ إلى جمود عباس فجمدت العصا في يده.. يحملق في عباس حائراً بين الدهشة والغضب . وعباس جموده لا يزال .

وقال الشيخ سلطان في ثورة مشوبة بالدهشة :

- اخرج ... اخرج ولا ترني وجهك ... اخرج يا كافر ... اخرج ... اخرج .

وظلّ يكرر الكلمة . لم يسكت عنها حتى بعد أن غادر عباس الحجرة وأغلق الباب من خلفه " (١) .

يرى عباس أنه وجد نفسه وحرّيته بالإلحاد، وأنه أصبح يشعر بالاستقرار حينما وصل إلى المرحلة التي كان يبحث عنها . أصبح لا يخاف وأصبح مسئولاً عن نفسه .

وعلى الرغم من صعوبة الموقف الذي مرّ به إلا أنه يشعر بالراحة أخيراً والتي رأى فيه نور الحرية". وخرج عباس من البيت وقد أحسّ أنه خفيف، يكاد يشعر أنه على غير صلة بالأرض ، ويكاد يظن أنه تخلص من الجسد . فروحه أثيرية مهمومة بلا حدود ، فما هي من ذلك الجسد المادي في شيء ... حر ... حر ... لا يحس بألم العصا ، بل يحس فقط أنه حر . استطاع أن يقول ما يريد ، ولا يشك في أنه يستطيع أن يفعل ما يريد ... ما يريد هو لا ما يريد له أبوه .. سيذهب حيث يحلو له أن يذهب ، لا في الفجر ، ولا صلاة في يوم الجمعة ، ولا صلاة على الإطلاق . وإنه ليعجب كيف تأخر إلى اليوم ليعلن لأبيه عن حقيقة مشاعره ؟ كيف استطاع أن يخادع نفسه ويخادع أباه طوال هذه الفترة .. سنة ونصف سنة .. منذ أول يوم دخل كلية الهندسة .. منذ ذلك الحين أصبح وثيقاً أن لا يؤمن بالله ... ولا يؤمن بغير الإنسان ... والإنسان وحده هو الحقيقة الثابتة في الوجود " (٢) .

يذهب عباس إلى ابنة الجيران إيفون مرقص، وهي من أسرة قبطية، مؤمنة بأن الدين محبة ، كما أنها مؤمنة بحبها لعباس ، وتعيش على حلم الزواج منه.

(١) أباطة ، ثروت (لقاء هناك) ص ٧٨-٧٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٨١-٨٢ .

يرتبط ولدها مرقص بوالد عباس بعلاقة صداقة حميمة ، أما مريم والددة إيفون فهي سيدة متقدمة في الدين، وتحت ابنتها دائما على الالتزام بالطقوس الدينية . يؤكد عباس لإيفون أنه يريد الزواج منها ، وأن الاختلافات الدينية لن تقف عائقا أمام حبهما .

حينما يكشف ولدها علاقة الحب التي تربط ابنته بعباس ، وحينما يكشف وجود عباس في حجرة ابنته - بغضب وبطرده ، ويعترض على هذا الحب ؛ فزولجها من عباس يعني خروجها عن الملة ، ويطلب من والد عباس أن يبعد ابنه عنها .

يضرب سلطان ابنه مرة ثانية ؛ حينما يعرف من مرقص أن ابنه قد دخل بيت صديقه خلسة. يشتد الغضب فينعت سلطان ابنه عباس بالكافر والملعون. تخرج إيفون من البيت وتعمل وتذهب إلى عباس وتسأله الزواج منها، ولكنها لا تجد منه استجابة ، فتشعر ببطان كلامه ، وعدم قدرته على تنفيذ ما رآه من شعارات الحرية والحب الذي لا يقيم وزنا للحواجر .. لقد أصبح تفكيره محصورا في مستقبله ودراسته . وقد تحول حبه لإيفون إلى حالة عقلية ترفض هذا الزواج حينما تأتبه إيفون شخصيا . ترجع إيفون في نهاية المطاف إلى أحضان الكنيسة وإلى أحضان بيتها .

تلتقي بشخصية ليلي ابنة خالة عباس الطالبة الجامعية التي تدرس الفلسفة، وتفكر بمنطقية ، وتبحث عن الحقيقة، والتي تؤمن بأن الشعور بالضيق يأتي حينما يكون الإنسان بلا دين. تلتقي ليلي بعباس فكريا ، ويحدث بينهما انسجام من نوع خاص ، وكانت ليلي تحب عباس حبا حقيقيا ، ولكنها لم تعلن له عن ذلك. تمتص ليلي همومه، وتستمع إلى مشاكله. وكان حينما يتضايق يزورها ويشكو إليها. وكانت تقف إلى جانبه، وتسانده نفسيا ، ولكنها في نفس الوقت تقف ضد فكره الإلحادي، وتناقشه في إنكاره لوجود الخالق، وإيمانه بالطبيعة والعلم والإنسان .

كانت ليلي شط الأمان الذي وجد فيه عباس ضالته . كانت مهدئا نفسيا لحالة الضيق التي تنتابه كثيرا . يقرر عباس الزواج منها ؛ بناءً على علاقة قائمة على التقدير والاحترام وليس على الحب. فتقبل به زوجها لها، وتحاول أن تقنعه بوجود الله ، وتحاول إخراجه من مرحلة التيه والضياغ التي لا يشعر فيها بالاستقرار النفسي، وتحاول ترسيخ فكرة وجود الخالق بدلا من وجود الطبيعة .

توصي ليلي عباس بطفلها الذي ستلده ؛ خاصة بعدما علمت من الطبيب بأن حالتها الصحية حرجة . كانت تشعر بدنو أجلها في مراحل الحمل الأخيرة ، لذا كانت توصيه بالألّا يؤثر على تفكير ابنه ، فهي تريد أن يكون مؤمنا مثلها ، وأن يعلمه الدين ، في حين يصرّ عباس على منحه حريته .

وفي لحظة الموت التي تهدد زوجته ليلي أثناء ولادة طفله ، يلتفت عباس إلى صوت الحق ، ويسأل الله أن ينجيها في خطوة تحويلية في فكره ، فقد اكتشف أن العلم والطب والمخترعات لم يمنعوا الموت من الوصول إليها .

" ونظر إلى الطبيب نظرة داهشة، ثم استسلم له وخرج ، ولكنه ظل ملاصقا لباب الغرفة يتحسس في خوف والدموع تملأ عينيه. وفجأة وجد نفسه يقول بلا وعي :

- يا رب ..

وأحسّ أنه وجد ما يريد أن يتعلّق به :

- يا رب ... يا رب ...

وظلّ يقولها ... ولا يقول شيئا غيرها ... يا رب .. يا رب .. " (١) .

مما لا شك فيه أن رواية (لقاء هناك) تحمل دعوة ثروت أباطة إلى التسامح بين الأديان، ونبذ روح الفرقة بين الطوائف الدينية . فالحب - في نظره

- جمع بين قلب عباس المسلم وقلب إيفون المسيحية ، ولم يفصل بينهما حاجز الأديان .

إن الحب -في رأيه- قادر على توحيد القلوب، وقادر على خلق التقارب بين الفكر المتناقض ، فالتقارب يُولد التجانس الفكري .

ويؤكد أباطة في روايته أيضا على بطلان الفكر الإلحادي، ويبيد اعتراضه على هذه العقلية الضيقة التي ترى حريتها في الانحلال من العقيدة. فعلى الرغم من قناعاته بالحرية، إلا أنه في نفس الوقت مؤمن بحدود هذه الحرية التي لا تتجاوز حدودها الطبيعية. فالاستقرار النفسي يأتي بالحب وبالإيمان بالله. والحرية - في نظره - لا تكون بالتححرر من الإيمان ، وإنما تكون بالاستقرار النفسي الذي يحققه الإيمان بالله . هكذا كان ثروت أباطة ممثلا لاتجاه عربي إسلامي محافظ .

كتب ثروت أباطة مقالا في صحيفة الأهرام عام ١٩٧٦ يقول فيه : " الإنسان بطبيعته يجب أن يؤمن ... لأن الإيمان في ذاته ضرورة الحياة . ولقد رأينا الملحددين . فهم جازعون هالعون إن مستهم مصيبة عادوا إلى إيمان مفرع غير مطمئن " (١) .

الحرية ... الحلم الكبير ورواية (شيء من الخوف)

لقد أثارت رواية (شيء من الخوف) اهتمام الكثيرين ؛ لأنها قدمت عملا إبداعيا رائعا، جسّد فيه ثروت نزعة الثورية التي تعانق الحرية، وترفض الاستبداد والظلم. نشر ثروت هذه الرواية في حلقات في مجلة "صباح الخير" عام ١٩٦٦، ثم صدرت في كتاب عام ١٩٦٧. وقد مثلت في فيلم سينمائي عام

(١) مقال بعنوان مصطفى محمود (بين الدين والعلم) صحيفة الأهرام العدد ٣٢٦٨٣ في ٤

يونيو ١٩٧٦ ، انظر كتاب (خواطر ثروت أباطة) ص ١٠٠ .

١٩٧٠. ودارت حول الفيلم ضجة إعلامية وشعبية كبيرة ؛بسبب التذاعيات السياسية التي تدخل الرواية في نفقها. وكان الأديب نجيب محفوظ رئيس مجلس إدارة مؤسسة السينما المصرية ، وكتب تقريره عن الفيلم في جملة واحدة قال فيها : "الرواية وطنية". وقد أُجيز عرض الفيلم ، ولكنه أوقف بعد أسبوعين لأسباب سياسية (١) .

يقول ثروت : " وكتبتُ رواية (شيء من الخوف) معتمدا على هذه القاعدة الشرعية حتى إذا فرغت منها ، وكتبت على الآلة الكاتبة ، وفكرت أن أجعل نجيب محفوظ يقرأها قبل أن تُنشر. وبينما هو يقرأها كنت أنا ألتقي بالروائي الكبير والصديق الأصيل فتحي غانم في لجنة القصة بالمجلس الأعلى . وكان في ذلك الحين رئيس مجلس إدارة "روز اليوسف" و"صباح الخير" طبعا. فرأيت أن أعرض فكرة أن تنشر "صباح الخير" روايتي الجديدة ، فرحب الرجل ترحيبا شديدا. وحين فرغ نجيب محفوظ من قراءته طالعتني برأيه أن للرواية شديدة الوضوح ، وقال :

- لا أدري إن كنت رأيته كذلك ؛ لأنك أخبرتي عن مضمونها أم أنني أنا استنتجت هذا ... لماذا قلت لي مضمونها ؟

ضحكت ، وقلت :

- وماذا تراني كنت أفعل وفكرة الرواية خطرت لي وأنا سائر معك .

فقال :

- ربنا يستر .

وبعد أيام قليلة كلمت فتحي واتفقت معه أن أمرَ عليه في مكتبه .

وهناك قال لي كلمة فيها كثير من المجاملة والتحية :

- إذا جاءتني مقالة من طه حسين فأنا أرسل بها إلى المطبعة فوراً وكذلك حين تجيئني رواية لك، فأني أصنع نفس الصنيع. لقد أرسلت الرواية إلى المطبعة^(١).

وقد كان لهذا الترحيب والتقدير الذي وجده من فتحي غانم لموهبته في الكتابة القصصية تأثير بالغ في نفس ثروت ، كما كان دافعا له لمواصلة الكتابة. فالاختلاف في الرأي بينه وبين فتحي غانم لم يقف عائقا في الاعتراف بموهبة ثروت ، ولم يقف حجر عثرة في نشر روايته .

عتريس وفؤادة والرمز الخالد

نعكس روايته (شيء من الخوف) قضية مهمة تتجسد في الحرية المغتصبة التي يحلم بها الإنسان في عصر الظلم والطغيان . فنحن نقابل شخصيتين محوريتين هما عتريس وفؤادة . ونجد أنفسنا أمام نهر الحب والخير والعطاء المتدفق من قلب فؤادة في مقابل عناكب الشر والبطش والظلم التي يلتحف بها عتريس والتي تقتفي أثر الناس ، وتسلبهم أمنهم واستقرارهم النفسي . نشعر بأننا أمام قضية إنسانية أزلية تتمثل في الصراع بين الخير والشر ، وبين القمع والحرية .. فالشر يحاول دائما أن يطمس الخير ، ولكنه لا ينجح في نهاية الأمر ؛ لأن الخير هو الحقيقة التي لا يمكن أن يُخفيها أحد .

تُمثل الرواية صرخة ثروت أباطة في وجه الظلم ، فالحياة تتحول - في رأيه - إلى فوضى حينما تسود شريعة الغاب ، وتغيب شريعة القانون والعدل. إنه الرفض الواضح للقوة التي تتعقب الضعيف مستخدمة لغة العنف والدم.

إن للدكتاتورية تصرخ بصوت عتريس الشرير الذي يشل أصوات الناس، ويسلبهم حرياتهم ، ويغتصب حقوقهم . إنه للصوت الشاذ الذي يقف في وجه العدالة والحق ، ويفرض الهيمنة والقوة والرعب .

(١) أباطة ، ثروت (نكريات لا منكرات) ص ٩٨ - ٩٩ .

وينطلق صوت فؤادة - في زحمة الخوف - معلنة شجاعته في مواجهة الظلم وعدم خضوعها للاستسلام والخوف. وقد لا يكون سلاح الحق متكافئاً مع سلاح الدكتاتورية ، لكن للمعركة في النهاية تنتهي بسحق الباطل المتمثل في دكتاتورية عتريس.

نرى في المقابل صوت الضعف الهامس في الخفاء الذي يستسلم للخوف، فلا يقوى على المواجهة مما يجعل صوت الباطل يعلو لفترة . ولكن تنتهي القضية بالثورة التي تستيقظ بعد رقاد طويل . تبدأ الانتفاضة على الظلم والطغيان بجرأة فؤادة التي تعلن عدم الخضوع لمنطق الخوف والخنوع ، حينما تواجه عتريس ببطلان زواجه منها.

ويأتي الشيخ إبراهيم الخطوة الثانية التي ولدت الثورة الشعبية. ويمثل الشيخ إبراهيم صوت الدين. يكتب على الحائط " زواج عتريس من فؤادة باطل " ويدون اسمه معلناً عدم خوفه من عتريس. وهكذا لم ينجح عتريس في قهر صوت الحق على الرغم من قتله لابنه محمود في ليلة زفافه.

لقد نجح ثروت في تجسيد صورة الشر في شخصية عتريس، هذا الرجل المتسلط القمعي الذي يلجأ إلى قوة السلاح والعنف والإرهاب ، فهو يسيطر على قرية الدهاشنة ، وينهب ويسلب ويدير عصابة مكونة من المجرمين الذين يستبيحون كل الأشياء.

كان منطق عتريس هو القضاء على صوت الرفض في القرية ، فمن يخالف أو امره يُقتل أو تحرق داره أو يُغرق زرعه أو تُقتل ماشيته. كان الكل مجبراً على الصمت والخضوع في ظل الضعف في مواجهة قوته وبطشه وقسوته .

ولعل النظام النفسي الذي يطغى على شخصية عتريس هو الظل الذي يسيطر عليه ، " وهو يمثل الجانب الحيواني من طبيعة الإنسان، وهو بوصفه

نمطا أوليا مسئول عن مفهوم الخطيئة الأولى لدى الإنسان ، وعندما يسقطه إلى الخارج يصبح الشيطان أو العدو. وهو مسئول كذلك عن ظهور الشعور ، وعن السلوك السار وغير السار، وعن الأفكار والمشاعر والأفعال المنبؤة اجتماعيا، وقد يعمل القناع على إخفائها بعيدا عن أنظار العامة الآخرين أو تكبت في اللاشعور " (١) .

كان شيئا آخر، وأصبح رجلا شريرا يمتن بـث الرعب في نفوس أهل القرية : " .. وهو بنفسه عتريس الذي كان يمرُ بمجامع القرية فيسخر ويضحك ويجري خائفا، فلا يدعو على هذه الابتسامة السانجة المنشرحة فتظل على شفثيه .. لم تقض الأيام على عتريس هذا الذي يحب الضحك الساذج .. ها هو ذا في المرأة اليمنى ... هناك في الجانب البعيد إني أعرفه ولا أكاد أعرفه .. أنه أنا .. وأين منه أنا .. إلى جانبه ذلك الفتى الذي كان يخرج مع جده في سهرات الليل المحفوفة بالمخاطر .. وكان يخاف ، ولكن جدّه ما زال به حتى أمات الخوف في نفسه .. أصبح لا يخاف .. ألا أخاف .. لا يبدو مني الخوف ، ولكن ألا أخاف .. المهم ألا يبدو مني الخوف .. وأصبحت أخرج على رأس الرجال ويظلُ جدي في البيت وأصبحت ذلك العتريس ... هل أنا كما يصفون .. أنا هنا في هذه المرأة ماذا أبو - هل أعرف هذا الذي يبدو لي أم أنا لا أعرفه .. أما هذا الذي يليه في الصورة فيخيل لي أنني أعرفه .. أو أنا أحب أن أعرفه .. ذلك الشاب الذي يحب الصوت الجميل والشكل الجميل والمرح .. ذلك الشاب الذي يولع بالجمال أينما يكن هذا الجمال .. أحب الصوت الحلو الذي يتغنى به المغنى كأنه صلة السماء بالأرض .. وما لي بهذه السماء؟ .. هذا الشاب يحب السماء .. ويحب فؤادة .. لأن فؤادة هي الجمال .. أشبه ما تكون بعروس أرسلتها الجنة إلى الأرض لتغري الناس أن يصلوا ويزكوا ويمتنعوا عن .. عن ماذا .. " (٢) .

(١) شقير ، زينب محمود (الشخصية السوية والمضطربة) ص ٦٠ .

(٢) أباظة ، ثروت (شيء من الخوف) ص ٥٩-٦٠ .

أصبح الكل يخاف من عتريس رمز الشر والحق والانتقام والعنف ، عدا فؤادة التي ظلت على شجاعته وصمودها في وجه الهيمنة التي يخشاها الرجال. فؤادة ابنة حافظ ، الشجاعة والعنيدة التي لا تخاف من عتريس.

"هائمة فؤادة في معاني الحب وفي ألوانه، تحب الحب بكل نامة من كيائها ، وكل نبضة من قلبها ، وكل مسرى في لماتها، وكل عرق من أعراقها، تمثل لها الحب جميعا في كل صلة من صلاتها، فهي تحب أمها وتعجب بها أحيانا ولا تعجب بها أحيانا أخرى، ولكنها تحبها، وهي تحب أباه وتعجب به أحيانا حين يحنو عليها ويعطف على أمها، ولكنها لا تعجب به حين يخاف من عتريس ومن عبد الصادق ، ثم تظل مع ذلك تحب أباه . وهي تحب الله ولا تناقش من شئونه شيئا ، وإنما هي تحبه ولا تحاول أن تغلل هذا الحب أو تتعمق أسبابه أو منابعه " (١) .

لما حافظ فهو شخصية ضعيفة لم يستطع الصمود في وجه رغبة عتريس في الزواج من فؤادة . يأتيه عتريس يوما، ويطلب يد فؤادة، وحين حاول إظهار تردده في تقبل الطلب، ردد عتريس عبارات قاسية قال فيها :

" يظهر أنك لا تتبين الأمر على حقيقته .. أنا عتريس.. عتريس .. أتفهم وأطلب منك ابنتك فؤادة لأتزوجها .. أتريد أن أضع لك الأمر بصورة أخرى .. عتريس حين يريد لابد أن يصل إلى ما يريد .. أنت عندك أرض .. وفي الأرض قطن الآن وأرز وأحيانا يكون في الأرض قمح .. وعندك ساقية .. وعندك بهائم .. وعندك أيضا - عند اللزوم - ابنتك فؤادة نفسها وأنا عتريس .. لعل الأمور واضحة في ذهنك الآن " (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٣٤.

(٢) المصدر السابق ص ٨١.

يُحدِّد عتريس يوم الخميس ليكون موعد عقد القران ، فيضطر حافظ للتحويل على الشيخ عبد التواب وهنداوي وبسيوني بادعاء دعوتهم على العشاء دون أن يخبرهم بالموضوع وذلك لعقد قران ابنته من عتريس . وبسبب خوفه يدّعي حافظ موافقة فؤادة على الزواج ، فتذهب رُغما عنها إلى بيت الزوجية المبني على زواج باطل. " وحين بلغوا البيت، وخلت الحجرة بفؤادة وعتريس اتخذت فؤادة مكانها على أريكة لاحظت أنها مغطاة بحريز جديد ، وسكتت كأن ما هي فيه لا يعينها . اتخذ عتريس مكانه على الأريكة جاعلا وجهه لها .

- لو تريدن أي أمل كبير أحققه بجلوسك هذا .. لقد عشت عمري كلّ أحلم بك جالسة معي .. لا تدرين كم أحبك ، ولا تدرين أي سعادة وهناء سأقدمه إليك. لو تدرين !!؟

لقد عشتُ عمري كلّ وأمنيّتي الكبرى هي أن أتزوج بك . منذ أنا طفل صغير .. كنت أتمنى أن أكون صديقك وشبّ معي الحب وكبر وطغى على كلّ أمنيّاتي ، حتى لقد كنتُ أحب أن أتمتع به أمنية كبرى وأصبر وأتمتع بالصبر .. واليوم تحقّق الحلم .

وفي هدوء قالت فؤادة :

- بل لم يتحقّق شيء " (١) .

وانتهت القصة بلحظة التتوير "وحملت فاطمة فؤادة بين ذراعيها وانفسح الطريق أمامها خرجت ونكس عتريس رأسه في استسلام ، وحين رفع بصره لينظر الطريق الذي سارت فيه فاطمة بفؤادة وجد الطريق وقد أغفلته العيون مرة أخرى " (٢) .

(١) المصدر السابق ص ١١٢-١١٣.

(٢) المصدر السابق ص ١٤٧.

ويظهر صوت الحق والجرأة التي تصرخ في وجه الطغيان ، إنه الشيخ إبراهيم الذي يحبه أهل القرية ، كان يشيد بشجاعة فؤادة التي تتحدى قوة عتريس ، يرفض الصمت حينما يعرف أن والدها قد خالف للشرع بتزويجها لعتريس بدون موافقتها ، فيطلب من أم فؤادة أن تخبر عتريس بأن العقد باطل وأن فؤادة ليست زوجته . ويملك الشيخ إبراهيم الشجاعة بإعلان بطلان زواج عتريس من فؤادة . وعلى الرغم من مقتل ابنه محمود على يد عصابة عتريس إلا أنه لا يكف عن ترديد عبارة " زواج عتريس من فؤادة باطل " .

يرى الشيخ إبراهيم أن حقوق البشر يمكن التغاضي عنها ، لكن حق الله يجب أن يؤخذ ؛ لذلك يصر على موقفه من بطلان زواج عتريس من فؤادة .

وهكذا كان القمع مثيرا نفسيا تسبب في نهاية الأمر في اشتعال الثورة ، ولعل هذا القمع الذي لم يغب عن ذهن ثروت أباطة جعله يكتف الصورة القصصية والروائية لمفهوم القمع في صورة مختلفة. وهو موضوع جوهري في عالما العربي السياسي ، " فالقمع حولنا في كل مكان ، تتعدد أسبابه وتتنوع تجلياته وأشكاله ، وتتكاثر أساليبه ، كالعنف الذي يسري في هواء " مدن الملح " فتتجذب إليه الرواية العربية كما ينجذب الغريم إلى غريمه ، وتشير إليه كما تشير النتيجة إلى سبب من أهم أسبابها ، وذلك في سياق من الدوافع التي تولدت عنها المئات والمئات من الروايات العربية العاصرة التي نقول لنا : إن زمن الرواية يوجد حين يغزو التمرد على الأنساق المغلقة بدلية انهيار هذه الأنساق ، وحين يواجه الوعي الإبداعي ما يعوق تقدمه، وحين تتولد رغبة للتححر عارمة، وتتأصل إمكانات للتحديث فارضة. وجودها ، وينبثق حلم العقل بمداثن المستقبل الخالية من القمع . بعبارة أخرى ، إن زمن الرواية العربية هو زمن الاستنارة التي تعني أولوية للعقل في إدراك المعرفة، وتقبل منطق العلم في تحديث العالم، وتحرير الفكر الذي يضع كل شيء موضع المسائلة ، بادئا من نفسه في سعيه

إلى طرح الأسئلة الجذرية التي تسهم في انتقال المجتمع من مستوى للضرورة إلى مستوى الحرية ، ومن وهاد التخلف إلى نرى التقدم " (١) .

الشخصيات والصراع في روايتي (لقاء هناك) (وشيء من الخوف)

يمكننا رصد دقة الوصف النفسي للشخصيات المحورية في روايات ثروت أباظة بشكل عام . كما أننا نلتقط الذكاء الخاص الذي يتمتع به ثروت في تجسيد الصراع الذاتي الذي تعيشه الشخصية ، والصراع العام للقائم بين الشخصيات . ونلاحظ هذا الإتقان الإبداعي في التصوير الدقيق الذي يتميز به الأسلوب القصصي والروائي لثروت أباظة .

ونبدأ بالشخصيات وهي العنصر الجوهرى والفعال في النسيج القصصي والروائي، وبصفة خاصة الشخصيات المحورية النامية التي تظهر في اتجاهات القصة والرواية بشكل واضح. وللوصول إلى تحليل الرواية بشكل دقيق فإنه لا بد لنا من النقاط الشخصيات المحورية ، ومحاولة كشف أبعادها النفسية والوجدانية والفكرية والسلوكية .

وتخضع الشخصيات في ظل هذه الدراسة إلى عدة نظريات ذات رؤى متعددة من بينها نظرية موراي الذي يرى أن تحليل الرواية شكلا ومضمونا يقوم على تفهم الموضوع الذي ينطلق في زاويتين : الأولى التحليل الشكلي والثانية التحليل المضموني .

وينصرف اهتمامنا إلى التحليل المضموني ؛ لأنه يشير إلى الموضوعات الرئيسية الغالبة في الروايات . ويكون الموضوع عادة متمحورا في جملة الأحداث الأساسية التي تدور حولها الرواية . ويتشكل فيه التكوين الدينامي أو ما نسميه الحبكة للقصة التي ينطلق فيها الأبطال بكل أبعادهم وحاجاتهم النفسية

(١) عصفور ، جابر (زمن الرواية) ص ١٤-١٥ .

والوجدانية ، ومحاطين بالضغط التي يتعرضون لها ، والمواقف التي يتخذونها تجاهها .

ويعتقد موراي أن الفهم المناسب للسلوك يحتم على الناقد أن يكون على دراية كاملة وتفصيلية بالحالات الفردية ^(١) .

وإذا انتقلنا إلى موضوع الصراع ، فإنه لابد أن نوضح أنواع الصراع ، والذي تقع أحد عناصره في دائرة شعورنا ، بحيث إننا ندرك المشكلة التي يدور حولها ذلك الصراع ، ونترك طرفي الصراع . إن هذا الصراع لا يتسبب عنه أي كبت أو عزل أفكار أو ميول أو رغبات من الشعور إلى اللاشعور . " أما النوع الثاني فيحدث في مستوى لاشعوري ، فكثيرا ما يجد نفسه نهب حاجات ونزعات لا تسمح له ظروفه الاجتماعية بتحقيقها . وحينئذ تكبت هذه الحاجات دون شعور منه وترسب في اللاشعور . ولا تبقى فيه خاملة ن بل تظل في حركة ونشاط لأنها لم تتحقق ، فهي دائما تبحث لها عن منفذ تخرج منه ، إلا أن النفس الشعورية تقف في أغلب الحالات حائلا بينها وبين تحقيق رغباتها ، وعلى هذا النحو يحدث الصراع النفسي " ^(٢) .

حينما نقرأ رواية (لقاء هناك) ورواية (شيء من الخوف) وأي رواية أخرى لثروت أباطة فإننا نلمس حجم للتأثر الكبير الذي تتركه الشخصيات المحورية في نفوسنا . فنحن ننقل من مرحلة القراءة إلى مرحلة أخرى تتمثل في التقاط الصوت والصورة والأبعاد النفسية الدقيقة، كما أننا لا نقف عند مستوى القراءة فقط ، وإنما نتعداه إلى مستوى المشاركة في العمل عبر الانغماس النفسي في الشخصيات وفي الصراع الذي يدور في أعماقهم وفيما بينهم .

(١) فهمي ، مصطفى (الدوافع النفسية) ص ١٢٦ .

(٢) عباس ، فيصل (أساليب دراسة الشخصية - التكنيكات الإسقاطية) ص ١٣٨ .

إننا أمام تكثيف وصفي مؤثر جدا يجعلنا نتتبع التفاصيل بشغف ، ونرى أعماق الشخصيات المحورية بوضوح . والرواية كما نعرف أكثر حياة وحيوية وحركة من القصة. وتمتاز لذلك بنظرة أكثر شمولاً ، كما يمتاز موضوعها بأنه أجل وأوسع ؛ إذ يصور الكاتب فيه أحداثاً في زمن ممتد ، ويحيط ببيئة أو مجتمع من المجتمعات (١) .

الملخص

تتناول الدراسة الألييب المصري ثروت أباطة صاحب الرواية الشهيرة (شيء من الخوف) وقد ، ركزت الدراسة علي مسيرة حياته وعلى جانب من إبداعه يتمثل في الرواية ، وكانت رواية (لقاء هناك) و رواية (شيء من الخوف) وهما علامتان بارزتان في إبداعات ثروت أباطة مثالا لذلك ، حيث تنتفض المشاعر ، وتتوهج الأفكار في صورة لقطات متحركة نابضة بالحياة والفكر الصاخب.

الملخص بالإنجليزية

The study focuses on the Egyptian litterateur Tharwat Abadha, who is famous of his novel entitled (Something From Fear).The study sheds the light on both, the life of Abadha and his creative literary work represented by his two famous novels (A Meeting There) and (Something From Fear). These two novels are the most big signs in the creative world of Abadha, where the feelings are shaken off, the thoughts glow in the moving picture of life and the noisy world.

(١) مريدن ، عزيزة (القصة والرواية) ص ٧٣-٧٤.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر

- ١- ابن عمار: سلسلة اقرأ ، دار المعارف ط ٥ ، ٢٠٠١.
- ٢- خواطر ثروت أباطة : مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٩٩.
- ٣- ذكريات لا منكرات: مكتبة مصر ، القاهرة.
- ٤- شيء من الخوف: سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، القاهرة .
- ٥- لقاء هناك: مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨٦
- ٦- لمحات من حياتي : مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٩٣
- ٧- هارب من الأيام : مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٨٥

ثانيا: المراجع

- ١- أساليب الشخصية : التكنيكات الإسقاطية - عباس ، فيصل، دار الكتاب اللبناني ، لبنان ط ١ ١٩٩٠ .
- ٢- البطل المعاصر في الرواية المصرية: الهواري ، أحمد، دار المعارف ، مصر ط ٣ ١٩٨٦
- ٣- التحليل النفسي للشخصية : شقير ، زينب، دار الفكر اللبناني ، لبنان ط ١ ١٩٩٤
- ٤- التفسير النفسي للأدب: إسماعيل ، عز الدين، مكتبة غريب ، القاهرة ١٩٩٧
- ٥- الدوافع النفسية: فهمي ، مصطفى، مكتبة مصر ، القاهرة ١٩٨٧
- ٦- زمن الرواية: عصفور ، جابر، دار المدى للثقافة النشر ، سوريا ط ١ ١٩٩٩

٧- زوجي ثروت أباطة: أباطة ، عفاف، سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، القاهرة
٢٠٠٣

٨- الشخصية السوية والمضطربة : شقير ، زينب، مكتبة النهضة المصرية ،
القاهرة ط ٢ ٢٠٠٢

٩- القصة والرواية: مريدن ، عزيزة، دار الفكر بدمشق ، سوريا ١٩٨٠

١٠- في الواقعية الروائي - للشيء بين الوظيفة والرمز: بوجاه ، صلاح الدين،
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ط ١ ١٩٩٣